



With thanks to the Schimmel Family for their generous sponsorship of Covenant & Conversation, dedicated in loving memory of Harry (Chaim) Schimmel.

The translation to Arabic was made possible through the generous funding of The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism and the generous donation of Mr. Myron Joshua from Kfar Etzion.

"بشلاح" هو النص الأسبوعي الرابع من كتاب "شموت" (سفر الخروج) ويبدأ هذا النص الأسبوعي بالآية السابعة عشرة من المقطع الثالث عشر وينتهي بالآية السادسة عشرة من المقطع السابع عشر.

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

رَفْعُ الْأَبْصَارِ نَحْوَ السَّمَاءِ

في تلك اللحظة من التاريخ، كان بنو إسرائيل قد عبروا بحر سوف (البحر الأحمر)، أي أنّ المستحيل قد حدث فعلاً؛ إذ هُزِمَ جيشُ مصرَ العظيم، أقوى جيوش العالم القديم بما كان يملكه من عرباتٍ تجرّها الخيول، وغرق في لجج البحر، ليعانق بنو إسرائيل حرّيتهم. غير أنّ الشعور بالانعتاق والطمأنينة لم يَدُم طويلاً، إذ سرعان ما هاجمهم العماليق، واضطّروا هذه المَرَّة إلى خوض معركةٍ بلا معجزةٍ ظاهرةٍ من الله عزّ وجلّ. ومع ذلك، قاتل بنو إسرائيل في هذه المعركة وانتصروا، وشكّل ذلك نقطةً تحوّلٍ حاسمة، لم تقتصر على بني إسرائيل فحسب، بل شملت أيضاً نبيّ الله ورسوله موشيه/موسى، وصاغت طريقته في قيادة شعبه.

لقد كان التباين بين حال بني إسرائيل قبل عبور بحر سوف وبعده صارخاً إلى أبعد الحدود. فقبل عبور البحر، وفي مواجهة جنود فرعون الذين يطاردونهم، قال نبيّ الله ورسوله موشيه لبني إسرائيل: "لَا تَخَافُوا، قِفُوا وَانْظُرُوا مَعُونَةَ اللَّهِ، الَّتِي يَصْنَعُهَا لَكُمْ الْيَوْمَ... اللَّهُ يُحَارِبُ عَنْكُمْ، وَأَنْتُمْ فَأَمْسِكُوا"، كما ورد في الآيتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة من المَقطع الرابع عشر من سفر الخروج. أي بمعنى آخر: لا تفعلوا شيئاً، فالله عزّ وجلّ سيتولّى الأمر عنكم، وهكذا كان.

أمّا في مواجهة العماليق، فقد قال نبيّ الله ورسوله موشيه ليهوشوع/يوشع بن نون: "اخْزُزْ لَنَا رِجَالاً، وَاخْرُجْ حَارِبَ الْعَمَالِيقِ غَدًا..."، كما ورد في الآية التاسعة من المَقطع السابع عشر من سفر الخروج. وبالفعل فعل يهوشوع ما طُلب منه، وخاض الشعب الحرب ضدّ العماليق. وهنا يتجلّى التحوّل العظيم: إذ انتقل بنو إسرائيل من وضعٍ كان فيه القائد، بمعونة الله عزّ وجلّ، يفعل كلّ شيءٍ عن الشعب، إلى وضعٍ يقوم القائد فيه بتمكين الشعب من تدبّر أمورهم بأنفسهم. وبينما يحدث ذلك، تَلَفُتُ التوراة انتباهنا إلى تفصيلٍ محدّد: فعندما بدأت المعركة، صعد نبيّ الله ورسوله موشيه إلى قَمَّةٍ تَلَّ يُشْرِفُ على ساحة المعركة، حاملاً عصاه في يده، كما ورد في الآيتين الحادية عشرة والثانية عشرة من

المقطع السابع عشر من سفر الخروج: "فَكَانَ مُوشِيهِ، كَمَا يُرْفَعُ يَدُهُ يَغْلِبُ آلُ يِسْرَائِيلَ، وَكَمَا يَحْطُّهَا يَغْلِبُ الْعَمَالِيقُ. وَلَمَّا ثَقُلَتْ يَدَا مُوشِيهِ، أَخَذُوا حَجَرًا، فَصَبَرُوهُ تَحْتَهُ وَجَلَسَ عَلَيْهِ، وَأَهَارُونُ وَحُورُ يُسْنَدَانِ يَدَيْهِ، أَحَدُهُمَا يُمْنَتُهُ، وَالْآخَرُ يُسْرَةً، فَكَانَتْ يَدَاةُ مَحْضُونَتَيْنِ إِلَى مَغِيبِ الشَّمْسِ. فَكَدَّدَ يَهُوشُوعُ عَمَالِيقَ وَقَوْمَهُ بِحَدِّ السَّيْفِ".

فما الذي يجري هنا؟ يمكن فهم هذا المشهد بطريقتين: فقد تكون العصا في يد نبي الله ورَسُولِهِ موشيه، تلك التي صَنَعَ بها المعجزات في أرض مصر وشق بها البحر، إشارة إلى أن انتصار بني إسرائيل كان معجزة خارقة، أو قد تكون العصا مجرد تذكير لبني إسرائيل بأن الله عز وجل معهم، وبأنه يمدُّهم بالقوة اللازمة للانتصار على أعدائهم.

وبصورة غير متوقعة، نجد أن الـ"مِشناه"، وهي كتابٌ شريعة وأحكام أكثر من كونها كتاب تفسيرٍ توراني، هي التي تُجيب عن هذا الإشكال حين تسأل: "هل كانت يدا موشيه تصنعان النصر أو الهزيمة؟" وتُجيب قائلة: "بل إن النص إنما يُشير إلى أنه كلما نظر بنو إسرائيل إلى السماء ووجهوا قلوبهم إلى أبيهم الذي في السماء (أي الله عز وجل) كانوا ينتصرون، وإلا خسروا" (كما ورد في الـ"مِشناه"، باب روش هاشناه، المقطع الثالث، الفقرة الثامنة). وبذلك توضح الـ"مِشناه" الأمر بجلاء: لم تكن العصا ولا يدا موشيه المرفوعتان تصنع المعجزة، بل كانت العصا واليدان تُذكران بني إسرائيل أن يرفعوا أبصارهم إلى السماء، ويستحضروا الله عز وجل في قلوبهم، وهذا ما منحهم الثقة والشجاعة للانتصار.

ومن هذا التفسير ينبثق مبدأً أساسيًا من مبادئ القيادة: على القائد أن يُمكن فريقه، لا أن يقوم بالعمل نيابة عنهم؛ فلا بُدَّ أن يتدبروا أمورهم بأنفسهم. لكنّه، في الوقت نفسه، مُلزَم بأن يغرس فيهم الثقة الكاملة بأنهم قادرون على الفعل والنجاح. فالقائد مسؤولٌ عن حالتهم النفسية وروحهم المعنوية. وفي أثناء المعركة، يجب ألا يُظهر أي علامة ضعفٍ أو تردّدٍ أو خوف. بيد أن هذا ليس بالأمر الهين دائمًا؛ إذ تُخبرنا التوراة أن يدي نبي الله ورَسُولِهِ موشيه "قد ثقلتَا". فجميع القادة تعثرهم لحظات إرهاق، ولهذا يكونون بحاجة إلى مساندة من حولهم. وحتى نبي الله ورَسُولُهُ موشيه احتاج إلى مساعدة من أهارون/هارون وهور، كي يُمسك بيديه ويُبقياهما مرفوعتين نحو السماء. وفي النهاية، غدت يدا موشيه المرفوعتان العلامة التي احتاجها بنو إسرائيل ليقنوا أن الله عز وجل هو الذي يمدُّهم بالقوة اللازمة للانتصار، وقد انتصروا بالفعل.

بمصطلحات عصرنا الحالي، يحتاج القائد إلى ما يُسمّى بالذكاء العاطفي. وقد أكّد دانيال جولمان، المعروف بعمله الرائد في هذا الميدان، أن من أهمّ مهامّ القائد أن يُشكّل مزاج الفريق ويرفع من معنوياته: "القادة العظام يُحرّكوننا. إنهم يُشعلون شغفنا ويُلهمون أفضل ما فينا. وحين نحاول أن نفسر أسباب نجاحهم وقدرتهم على تحقيق النتائج المرجوة، فإننا غالبًا ما نعزي ذلك إلى استراتيجيتهم أو رؤيتهم أو أفكارهم العظيمة، لكن حقيقة الأمر أشدّ بساطة وعمقا: القيادة العظيمة تعمل من خلال التأثير على المشاعر".¹

إنّ للجماعات مزاجًا عاطفيًا كما للأفراد. فالفرد قد يكون بمفرده سعيدًا أو حزينًا، قَلْبًا أو مطمئنًا، خائفًا أو واثقًا. غير أنّه حين يجتمع الأفراد في جماعة، ينشأ بينهم انسجام عاطفي، أو ما يُعرف بالعدوى العاطفية، فيبدؤون بمشاركة الشعور نفسه. وقد أثبتت التجارب العلمية أنّه خلال خمس عشرة دقيقة من بدء محادثة بين شخصين، يبدآن بالتقارب في المؤشّرات الفسيولوجية للحالة المزاجية، مثل معدّل نبض القلب. وعندما يجلس ثلاثة غرباء مقابل بعضهم في صمت لمدة دقيقة أو دقيقتين، ينقل الشخص الأكثر تعبيرًا عن مشاعره حالته المزاجية إلى الاثنين الآخرين، دون أن ينطق بكلمة واحدة.² وقد درست الأسس الفسيولوجية لهذه الظاهرة، المعروفة باسم "المُحاكاة" أو "المِرآة العصبية"، في السنوات الأخيرة دراسةً واسعة، حتّى إنّ العلماء لاحظوها أيضًا بين القردة. وتشكّل هذه الظاهرة الأساس للتعاطف، الذي يُتيح لنا فهم مشاعر الآخرين ومشاركة أحاسيسهم.

1. Daniel Goleman, *Primal Leadership* (Boston: Harvard Business Review Press, 2002), 3.

2. Ibid., 7.

وهذا هو الأساس لأحد أهم أدوار القائد. فهو الذي يحدّد، أكثر من غيره، مزاج الجماعة وانفعالاتها. وقد استعرض جولمان عددًا من الدراسات العلميّة التي تُظهر أنّ القادة يؤدّون دورًا حاسمًا في تشكيل الحالات المزاجية المشتركة داخل المجموعة:

"عادةً ما يتحدّث القادة أكثر من غيرهم، ويصنعي الآخرون إلى ما يقولونه بانتباهٍ أكبر... لكنّ تأثيرهم العاطفي لا يقتصر على الكلمات فحسب. ففي هذه الدراسات، حتّى عندما لم يكن القادة يتكلّمون، كانوا يظّلون محطّ أنظار الآخرين الذين يراقبون حركاتهم أكثر من أيّ شخصٍ آخر في المجموعة. وعندما يطرح أحد أعضاء المجموعة سؤالًا على الجميع، كان الجميع ينظرون إلى القائد ليروا كيف يتفاعل مع السؤال. بل إنّ أعضاء الجماعة، بشكلٍ عامّ، يرون في الاستجابة العاطفيّة للقائد المرجع الأكثر صحّةً ومصداقيّةً، فيحاكونها في مشاعرهم هم أنفسهم، لا سيّما في المواقف التي يسودها الغموض حيث يختلف الأعضاء في ردودهم. وبمعنى آخر: القائد هو الذي يُشكّل المرجع العاطفيّ للجماعة، ويحتدي به الآخرون".³

عندما يتعلّق الأمر بالقيادة، فإنّ الإشارات غير اللفظيّة الصادرة عن القائد لا تقلّ أهميّةً عن كلماته. ويجب على القائد، على الأقلّ عندما يكون في الأماكن العامة، أن يُظهر الثقة والاطمئنان، حتّى ولو اعتراه الشكّ والتردد. لأنّه إذا أظهر مخاوفه الشخصيّة بالقول أو الإشارة، سيُوهِن عزيمة الجماعة ويُضعف روحها المعنويّة.

وأبرزُ مثالٍ على ذلك ما ورد في التناخ عن أفشالوم/أبشالوم ابن الملك دافيد/داوود، الذي انقلب على أبيه وأعلن نفسه ملكًا مكانه. غير أنّ جند الملك دافيد أحمدا والعصيان، وقد مات أفشالوم أثناء المعركة، حيث غلب شعوره بغصن شجرة فأغمد يوّاف/يوّاب، قائد جيش الملك دافيد، رُمحه في جسده فقتله.

وحين بلغ الخبرُ الملك دافيد، انفطر قلبه من شدّة الحزن. صحيح أنّ ابنته تمرّد عليه، لكنّه يظنّ ابنته في نهاية المطاف. فانهار الملك دافيد حزنًا على موته، وغطّى وجهه وأخذ يبكي ويصرخ قائلاً: "يا بُنَيّ أفشالوم! يا أفشالوم، يا بُنَيّ، يا بُنَيّ!"، كما ورد في الآية الثالثة والثلاثين من المقطع الثامن عشر من سفر صموئيل الثاني. وسرعان ما انتشر خبرُ حزن الملك في صفوف الجيش، فأصابهم ما يُشبه "العدوى العاطفيّة"، واستولت عليهم موجةُ الحُداد.

وقد اعتبر يوّاف هذا الأمر كارثةً حقيقيّةً، إذ إنّ الجيش خاطر بحياته في سبيل الملك دافيد وقاتل ضدّ ابنه، وكان يُدرك أنّ أيّ انقلابٍ في المشاعر الآن، يُحوّل فرح الجنود بالنصر إلى ندم، سيُحدث ارتباكًا خطيرًا لديهم ويقضي على روحهم المعنوية. ولذلك، دخل يوّاف إلى بيت الملك وقال له هذه الكلمات الواردة ابتداءً من الآية السادسة وانتهاءً بالآية الثامنة من المقطع التاسع عشر من سفر صموئيل الثاني:

"قَدْ أَخَزَيْتَ الْيَوْمَ وُجُوهَ جَمِيعِ عِبِيدِكَ، مُنْقِذِي نَفْسِكَ الْيَوْمَ وَأَنْفُسِ بَنِيكَ وَبَنَاتِكَ وَأَنْفُسِ نِسَائِكَ وَأَنْفُسِ سَرَارِيِّكَ، بِمَحَبَّتِكَ لِمُبْغِضِيكَ وَبُغْضِكَ لِمُحَبِّبِكَ، لِأَنَّكَ أَظْهَرْتَ الْيَوْمَ أَنَّهُ لَيْسَ لَكَ رُؤْسَاءٌ وَلَا عَبِيدٌ، لِأَنِّي عَلِمْتُ الْيَوْمَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ أَفْشَالُومُ حَيًّا وَكُنَّا الْيَوْمَ مَوْتَى، لَحَسَنَ حِينِيذِ الْأَمْرِ فِي عَيْنَيْكَ. فَالآنَ قُمْ وَاخْرُجْ وَطَلِّبْ قُلُوبَ عِبِيدِكَ، لِأَنِّي قَدْ أَقْسَمْتُ بِالرَّبِّ إِنَّهُ إِنْ لَمْ تَخْرُجْ لَا يَبِيتُ أَحَدٌ مَعَكَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، وَيَكُونُ ذَلِكَ أَشْرَ عَلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَرٍّ أَصَابَكَ مُنْذُ صَبَاكَ إِلَى الْآنَ".

لقد فعل الملك دافيد ما أصرّ عليه يوّاف، وأدرك أنّ هناك وقتًا ومكانًا مناسبين للتعبير عن الحزن، لكن لم يكن الأمر مناسبًا في تلك اللحظة بالذات، ولا في ذلك المكان، وقبل كلّ شيء: ليس علنًا أمام الجميع. فقد كان ذاك وقتًا ينبغي فيه شكر الجيش على شجاعته في الدفاع عن الملك.

نفس المصدر 8. Ibid., 3.

يجب على القادة أحياناً أن يكتبوا مشاعرهم الخاصة، إذا أرادوا ألا يُحطّموا معنويات الذين يقودونهم. وهذا ما كان الحال عليه في معركة بني إسرائيل ضدّ العماليق، وهي أوّل معركة اضطروا فيها للقتال بأنفسهم. وكان على نبيّ الله ورَسُولِهِ موشيه أن يؤدّي دوراً حاسماً: أن يمنح الشعب الثقة بجعلهم يرفعون أنظارهم نحو السماء.

ويجدد بنا في هذا الصدد أن نروي قصّة حقيقية عن عالم آثارٍ هاوٍ اسمه مارسيلينو سانت دي سوتوولا (Marcelino Sanz de Sautuola) في عام 1875، بدأ سوتوولا بالتنقيب في كهف ألتاميرا، قرب الساحل الشمالي لإسبانيا. في البداية، لم يعثر على ما يُثير اهتمامه، لكنّ فضوله تجدد بعد زيارته لمعرض باريس عام 1878 حيث عُرضت مجموعة من الأدوات والقطع الفنية التي تعود إلى العصر الجليدي (أي تعود لعصر ما قبل التاريخ). عندها، قرّر سوتوولا أن يعود إلى الكهف عام 1879 لبحث عن آثارٍ مُماثلة.

وفي أحد الأيام، اصطحب سوتوولا معه ابنته ماريا التي تبلغ من العمر تسع سنوات. وبينما كان يُنقب بين الرُكام، تعمّقت أكثر منه في الكهف، وإذا بها ترفع بصرها فجأة إلى الجزء العلويّ من الجدار، لتتفقد من الدهشة: "انظروا يا أبي، إنّها ثيران!"، والحقيقة أنّها كانت رسومات للبيسون، لا للثيران، لكنّ الأهمّ أنّها كانت قد اكتشفت إحدى أعظم روائع فنون ما قبل التاريخ على الإطلاق. فرسومات ألتاميرا المهيبة، التي يتراوح عمرها بين خمسةٍ وعشرين ألفاً وخمسةٍ وثلاثين ألف سنة، كانت اكتشافاً غير مسبوق إلى درجة أنّ إثبات صحتّها استغرق اثنتين وعشرين سنة كاملة.

طيلة أربع سنوات، كان سوتوولا يقف على مسافةٍ لا تزيد عن مترٍ واحدٍ من هذا الكنز العظيم، لكنّه لم ينتبه إليه لسببٍ واحد: لقد نسي أن ينظر إلى الأعلى!

إنّ أحد أكثر المواضيع التي يتطرق إليها التناخ هي الدعوة إلى رفع البصر نحو السماء. فالنبيّ يشعياهو/إشعيا يقول: "ارْفَعُوا إِلَى الْعَلَاءِ عُيُونَكُمْ وَانْظُرُوا، مَنْ خَلَقَ هَذِهِ؟"، كما ورد في الآية السادسة والعشرين من المقطع الأربعين من سفر إشعيا. والملك دافيد يقول: "ارْفَعْ عَيْنَيْ إِلَى الْجِبَالِ، مِنْ أَيْنَ يَأْتِي عَوْنِي؟" كما ورد في الآية الأولى من المزمور المائة والحادي والعشرين. وفي سفر التثنية، يقول نبيّ الله ورَسُولُهُ موشيه لبني إسرائيل إنّ الأرض الموعودة لن تكون مثل سهل دلتا النيل المنبسط، حيث الماء وفير ومتوفر بانتظام، بل ستكون أرض تلالٍ وأودية، تعتمد كلياً على الأمطار التي لا يمكن التنبؤ بها. إنّها تضاريس تُجبر سكّانها أن يرفعوا أنظارهم إلى السماء ويدعوا الله، وهذا ما فعله نبيّ الله ورَسُولُهُ موشيه من أجل الشعب في معركتهم الأولى: لقد علّمهم أن يرفعوا أبصارهم نحو السماء!

لا يوجد إنجازٌ سياسيّ أو اجتماعيّ أو أخلاقيّ يخلو من العقبات الجسيمة. إذ يوجد دائماً مصالح راسخة يجب مواجهتها، وعقليّات متصلّبة ينبغي تغييرها، وأشكالٌ من المقاومة يجب التغلّب عليها. فالمشكلات مُلحّة وطارئة، والوصول إلى الهدف النهائيّ كثيرًا ما يبدو بعيدًا جدًّا إلى حدٍّ مثيرٍ للإحباط. إنّ كلّ مشروع جماعي يشبه قيادة أمةٍ في برّيةٍ شاسعة، نحو وجهةٍ نهائيةٍ يتطلّب الوصول إليها مواجهة صعوبات أكبر بكثيرٍ مما نتوقع عندما نكتفي بالنظر إلى الخريطة.

فإن نظرت إلى الأسفل، نحو الصعوبات، سيدبّ اليأسُ فيك. لكنّ الطريقة الوحيدة للإبقاء على طاقتنا متقدّة، سواء الفردية أو الجماعية، هو أن نُوجّه أبصارنا إلى السماء، نحو الأفق البعيد للأمل.

وقد قال الفيلسوف لودفيغ فيتغنشتاين إنّ غايته من الفلسفة كانت "أن يُريّ الذبابة طريق الخروج من القارورة".⁴ فالذبابة المسكينة عالقةٌ في القارورة، تضرب رأسها مرارًا بزجاجها بينما تبحث عن مخرج، حتّى تموت أخيرًا من الإنهاك. ومع ذلك، كانت قُوّة القارورة مفتوحة طوال الوقت، لكنّ الشيء الوحيد الذي نسيت أن تفعله الذبابة هو أن تنظر إلى الأعلى. وكذلك نحن، كثيرًا ما ننسى أن نرفع أبصارنا نحو السماء.

4. Ludwig Wittgenstein, *Philosophical Investigations*, trans. G. E. M. Anscombe (Blackwell Publishers, 2001), 309.

لا تقتصر مهمّة القائد على تمكين شعبه، بل عليه أيضًا أن يُلهمهم. وهذا بالضبط ما فعله نبيّ الله ورَسُولُهُ موسى، حين وقف على قَمّة التلّ، أمام أنظار الشعب، رافعًا يديه وعصاه نحو السماء. وعندما أبصرَ الناسُ ذلك، أيقنوا أنّهم قادرون على الانتصار. "لا بِالْقُدْرَةِ وَلَا بِالْقُوَّةِ، بَلْ بِرُوحِي"، يقول النبيّ زخاريا/زكريا، كما ورد في الآية السادسة من المقطع الرابع من سفر زكريا. إنّ التاريخ اليهوديّ كلّهُ ليس إلا سلسلةً من التنويعات على هذا اللحن: إنّ شعبًا صغيرًا يواصل رفع بصره إلى السماء في مواجهة المصاعب، سيُحقّق انتصاراتٍ عظيمة وإنجازاتٍ جليّة.

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

Sponsored by The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University and the generous donation of Mr. Myron Joshua from Kfar Etzion



Facebook Twitter Instagram YouTube | RABBISACKS.ORG